الإمام

محمد عبده

- كوّن مدرسة للإصلاح رغم السجن والنفى!

الإمام محمد عبده

الإمام محمد عبده أحد أعلام الفكر الإسلامى، فهو مفكر مستنير قدم لوطنه ولدينه كل ما هو جدير بالتقدير والاحترام، وكانت دعوته إلى احترام العقل، وتطوير الأزهر، والإصلاح الاجتماعى نقطة انطلاق إلى حياة جديدة . . لا تركن إلى التقليد بل تندفع إلى الأخذ بمبادئ القوة، والنهج العلمى والعقلى، حتى تنطلق الأمة إلى غد مشرق . .

غد يتحرر فيه المسلمون من ربقة الاستعمار الأجنبى، وأن يأخذوا بالأسباب التى تدفعهم إلى التقدم إلى النور، وعدم الاستغراق فى ظلام الجهالة، ومن هنا لم يكن غريباً أن يقول عنه جمال الدين الأفغانى عندما خرج من مصر إلى منفاه.

- لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً.

ولم تسر الحياة بالإمام محمد عبده كما كان ينبغى ، بل تعرض للنفى والتشريد، والبعد عن الوطن الذى نشأ فيه وأحبه، ولكنه فى منفاه فى بيروت، أو عندما ذهب إلى باريس، لم يكن بالإنسان الخامل الذى استسلم لما فعله به الطغاة، بل قام بالتدريس فى بيروت، وأصدر مع أستاذه جمال الدين الأفغانى جريدة العروة الوثقى، لتكون لسان حال الذين يتطلعون إلى التحرر، وبث دوافع الحركة نحو التفكير السليم، والحرص على الاستقلال لكافة العالم الإسلامى، وليس وطنه مصر وحده. . وبلغ من نضج تفكيره أن راسل مفكرو العالم وأدبائه، من أمثال الكاتب والروائى الروسى الشهير تولستوى.

ومن هنا لم يكن غريباً أن يقول عنه محامى العرابيين (مستر برودلى) كلمة إنصاف، عندما رسم صورة للإمام الجليل قائلا:

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين،

وقد أثر فى الطبقة المهذبة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً ، لأنه كان كاتباً لطيفاً، وعالماً بالعربية ضليعاً ، وخطيبا فصيحاً ينفذ إلى القلوب، ولا شك أنه ساعد كثيراً على جعل الرأى العام عاملا فى الترقى المصرى.

ولد محمد عبده فى محلة نصر من أعمال البحيرة ١٨٤٩م، وحفظ القرآن، ودخل الأزهر الشريف وتعرف فى عام ١٢٨٧هـ على الشيخ جمال الدين الأفغانى وتأثر به، وتخرج الإمام محمد عبده فى الأزهر الشريف.

وعرفته الحياة العامة عالماً جليلاً حريصاً على تجديد الفكر الدينى، وتجديد الحياة فى مصر، حتى أن قاسم أمين كتب عنه:

« أنه ذو مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها، ويحركها نحو الغاية التى رسمها ، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذى هيأه لها ».

وفى كل موقع تولاه، سواء فى كتاباته فى الوقائع المصرية، أو فى غيرها، نراه حريصاً على وطنه ، مبعدا نفسه عن السجع الذى كان يسود الكتابة فى هذا العصر، كما أنه فى الوقائع كان يتحدث عن هموم الناس ويعبر عنها بأسلوب مشرق، كما كان يدافع عن الدين الحنيف بأسلوب عقلانى، بعيدا عن الأساطير والخرافات، مطالباً بالإصلاح الاجتماعى، وموضحاً قوة وأهمية الرأى العام فى مستقبل الوطن.

وعندما نفى خارج بلادة، لم تلن له قناة فى سبيل العمل على خلق رأى عام قوى، كما لم تلن له قناة أيضاً عندما تعرض إلى محنة السجن فى بلاده.

كان يخرج من هذه المحن وهو أشد عزماً على تحقيق ما تصبو إليه نفسه من تحرير مصر من الاستبداد والاستعمار، وعلى أن تكون التربية السليمة وسيلة للنهضة والنهوض إلى واقع جديد. . يفهم فيه الدين فهماً مستنيراً ، ويفهم المواطن حقه فى المواطنة. . فللحاكم حقوق. . وللمواطن حقوق.

ولا ينبغى أن يتعدى أحد على حقوق أحد. . أنه يقول:

« . . وهناك أمر كنت من دعاته، والناس جميعاً فى عمى عنه، ولكنه الركن الذى تقوم عليها حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل ألا يخلو

مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ».

نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد عن العشرين قرنا.

- دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته، فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه، ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل.

«جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه.

والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس عبيد له أى عبيد».

وقد بلغ من نفوذ الرجل وتأثيره على الناس أن الإنجليز استطاعوا إغلاق «العروة الوثقى» ومنعها من دخول البلاد الواقعة تحت نفوذهم فى الهند وغيرها.. وعندما رجع إلى بيروت .. ظل المدافع عن حقوق الناس وظل يرسل ومضات علمه فى كل مكان ، إلى أن عاد إلى مصر من منفاه عام ١٣٠٦هـ، ليواصل نضاله وجهاده على مختلف المستويات.

وعين قاضياً بالمحاكم الشرعية، ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف ثم عين مفتياً للديار المصرية سنة ١٨٩٩م.

ويقول الدكتور عثمان أمين فى دراسته عنه فى كتاب (رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى).

«.. وامتازت فتاوى الأستاذ الإمام بالميل إلى التسامح، واستقلال الرأى ، والبعد عن التقليد، والملائمة بين روح الإسلام ومطالب المدنية الحديثة»

وأشهر الفتاوى التى أصدرها اثنتان تبيح للمسلمين بأن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة والثانية تبيح لهم أن يتزينوا بزى غير زيهم التقليدى تيسيراً لهم فى أمور معاشهم.

وقد سببت هذه الفتاوى كثيراً من المجادلات ، وأثارت سخط الشيوخ المتزمتين، وجلبت على المفتى ضروباً من القدح والتشهير، لم تكن الدوافع إليها دينية خالصة فى أكثر الأحيان.

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ عين محمد عبده عضوا فى مجلس شورى القوانين، فسار على سياسة ترمى إلى تربية الرأى العام فى مصر، وتعويد الأمة دفة النقد والتمحيص والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصة، واستهداف المصالح القومية الكبرى.

وعمل الشيخ عن طريق (الجمعية الخيرية الإسلامية) التى كان من أوائل مؤسسيها، على تحقيق إصلاح أخلاقى اجتماعى، يذكى فى الناس روح الاعتماد على النفس والتعاون بين الأفراد، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان إلى الفقراء، وكان صوته أول صوت ارتفع فى الشرق العربى الحديث منادياً بنشر مبادئ العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات.

وإلى الأستاذ يرجع الفضل فى إنشاء (مدرسة القضاء الشرعى) والعمل على إصلاح المحاكم الشرعية ، كما أسس (جمعية إحياء الكتب العربية القديمة).

وفى عام ١٩٠٠ حدث أن نشر وزير خارجية فرنسا:

- جبريل هانوتو - مقالاً فى صحيفة (لوجورنال) الباريسية بعنوان : موقفنا من الإسلام والمسألة الإسلامية .. فلما ترجم المقال فى جريدة (المؤيد) بادر الأستاذ الإمام بالرد عليه، ففند ما زعمه (هانوتو) من فوارق بين المسيحية والإسلام فيما يتصل بطبيعة (الله) وحقيقة القدر وحرية الأفعال، كما أنكر ما زعمه (هانوتو) من قيام التعارض بين الساميين والآريين، ولامه فى النهاية لاستخدامه معلوماته التاريخية فى محاولة التأثير على أفكار الفرنسيين الذين تجهل أغلبيتهم حقيقة الإسلام.

وقد اشتهر هذا الرد ، كما اشتهر رد الإمام على (فرح انطون) الذى نشر مقالاً عن الفيلسوف (ابن رشد) ورد فى سياقه تعريض بالإسلام (وقد نشر الأستاذ الإمام رده هذا مبسوطاً فى كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية).

وفى سنة ١٩٠٥ شرع محمد عبده فى نشر الدعوة لإنشاء جامعة مصرية تقوم إلى جانب الجامعة الأزهرية، ولم يقنع بالتفكير بل خرج المشروع إلى التنفيذ فأقنع أحمد المنشاوى باشا بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى إحدى ضواحى القاهرة، ولكن موت المنشاوى باشا أوقف المشروع.

وفى ١١ يوليو ١٩٠٥م توفى الإمام فى أوج نشاطه وكانت وفاته حداداً عاماً للبلاد العربية والإسلامية جميعاً.

لن ينسى له التاريخ مواقفه الرائعة مع الحرية، وضد الطغيان ومؤازرته لقاسم أمين لتحرير المرأة المصرية.

كما لن ينسى له التاريخ دفاعه المجيد عن وطنه وحقه فى الحرية والاستقلال.

كما لن ينسى له التاريخ مواقفه العملية فى الإصلاح كما طالب بالتجديد والبعد عن التقليد ، وأن يدرس التراث، ولكن بروح عقلية، فنأخذ المفيد من هذا التراث، وندع ما لا يفيد.

وأوضح أن ضعف المسلمين يرجع إلى عدم فهم الإسلام فهماً سليماً، فالإسلام هو دين العلم. . والإسلام هو دين الحضارة. . والإسلام هو دين التقدم، لأنه يدعو إلى كل ذلك.

فهو مثلاً يرد على الذين يتواكلون، ولا يعملون، ويرجعون ذلك إلى ما كتب على الإنسان فيقول:

- إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه، فإن هذا لمن سخف الرأى، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين

- ويتحدث عن الإرادة الإنسانية . وأن هذه الإرادة هى منطق الثواب والعقاب.

ويقول الدكتور / عثمان أمين:

- إن المفكرين لحرية الأفعال الإنسانية يحتجون بالآية القرآنية:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الصافات].

ويفسرونها على معنى أن الله هو خالق أعمال الناس، ولكن محمد عبده يلاحظ أن هذه الآية نفسها تقول ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهى بذلك تقيد نسبة العمل إلى الإنسان.

ولكنهم قد يزعمون أننا إذا حرصنا على إثبات الحرية الإنسانية، فقد رفعنا إرادة الإنسان إلى مرتبة الإرادة الإلهية، وهذا يؤدى إلى (الشرك) بالله، لكن الفيلسوف يدفع ذلك الاعتراض على وجه لا يخلو من طرافة ، فيبين أن الإنسان الذى يقترف إثم (الشرك) ليس هو الإنسان الذى يعوّل على قواه الخاصة، ويعد نفسه مسيطراً على أهوائها، مسئولا عن تصرفاتها ، بل المشرك هو الذى يعتقد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الطبيعية الظاهرة، وأن لشىء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة الإنسان ثم أن المشرك هو من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر الإنسان عليه، كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله.

على أن التوكل الصحيح لا يعنى شيئاً آخر سوى الثقة بالله مع استعمال الأسباب الطبيعية من أجل غايات ترسمها عقولنا.

فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا فى الوسائل التى توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا، وأن تجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال فى طريق الوصول إلى المقصود.

ويرى أن عقيدة (القضاء والقدر) . . إذا فهمت على الوجه السليم، وخلصت من شناعة القول بالجبر، لا يمكن أن يكون لها على الأخلاق إلا أثراً حميداً، تبعث النفوس على الإقدام والشجاعة، واحتمال المكاره ، واقتحام الأهوال، وتبث فيه روح التضحية، وتطبعها على السخاء والثبات، وبذل ما هو عزيز فى سبيل الفكرة والعقيدة، والذى يعتقد أن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء . . كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته؟

وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق، وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية؟

و. . وما أكثر ما يمكن أن يقال عن الأستاذ الإمام.

و. . ما أكثر ما قدمه من فكر ناضج لنهوض وطنه ونهوض الشعوب الإسلامية من رق التخلف، ورق الاستعمار وكان يؤمن بأن الشرق فى حاجة إلى الحاكم العادل وأن النهوض بالأمة يبدأ بالنهوض بالأسرة، وبث القيم الأخلاقية الكريمة، والتربية السليمة التى تخلق وعياً ناضجاً بما ينبغى أن تكون عليه الحياة. .

وكانت مؤلفاته علامة طريق فى أن نعنى بالعقل وتكون نظرتنا للحياة نظرة عقلية، حتى تستقيم الأمور ويتضح الواقع، ونعرف موضع أقدامنا.

ونرى فى كتابه (الإسلام دين العلم والمدنية) رأى الإمام فى تجديد حياتنا من خلاله مذهبه الإصلاحى وهذا الكتاب كما يحدثنا عنه الدكتور عاطف العراقى يكشف عن سعة اطلاع الأستاذ الإمام، وعمق ثقافته الدينية الإسلامية، واهتمامه اهتماماً كبيراً بالدفاع عن الإسلام، وسيجد القارئ لهذا الكتاب كيف يقوم محمد عبده وهو رجل دين أساساً بتوظيف الأفكار الدينية، وبحيث لا تكون أفكاراً جديدة معزولة عن مجتمعنا.

ويقول: إننا الآن وأكثر من أى وقت مضى فى أمس الحاجة إلى العديد من الأفكار التى نجدها فى هذا الكتاب وغيرها من كتب ورسائل تركها لنا الشيخ محمد عبده رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان على تأليفها. . ولعل هذا إن دلنا على شىء، فإنما يدلنا على أن الفهم المتفتح للدين وأحكامه هو الذى يقدر له البقاء؛ بل سيكون فى واد، وتكون حياتنا الفكرية والاجتماعية فى واد آخر.

ومعنى هذا أن الفهم المتفتح يكون فى صالح الدين وليس ضدا له، وفى حين أن الفهم المغلق الجامد يحمل فى طياته الإساءة إلى الدين وإبعاده عن حياتنا ولكن ماذا نفعل حيال قوم يفضلون ظلام العدم على نور الوجود. . بل من مصائب الزمان وكوارث الدهر أنهم لا يرتضون الظلام لأنفسهم فقط، بل يقومون بالدعوة إلى

إشاعة الفكر المظلم ، الفكر التقليدى الأسطورى، وذلك حتى تصبح حياتنا ظلاماً فى ظلام.

هذه كلها جوانب ينبغى الإشارة إليها، وتعد ضرورية لسبر أغوار العديد من الأفكار التى نجدها فى كتاب (الإسلام دين العلم والمدنية) وفى بقية كتابات الأستاذ الإمام بحيث أن منهجه الإصلاحى نجده سارياً فى أكثر كتبه ورسائله.

وما أكثر ما يمكن أن يكتب عن الأستاذ الإمام، بل ربما لا تكفى مجلدات للحديث عن الأثر الذى تركه الأستاذ الإمام فى دفع حركة الحياة فى بلادنا نحو التقدم والاستنارة . . ولا نستطيع أن نختم الكلام عن هذا الإمام الجليل، دون أن نتحدث عن (الرجل الكبير) فى نظر الإمام لأنه كان رجلاً كبيراً . . إنه يقول:

الرجل الكبير يحس يتألم ، ويدفعه الألم إلى أن يتكلم، بل تحمله شدة الإلم على أن يجاهد فى قومه وهم أحب الناس إليه، ويقاتلهم ليدافع عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر النظر أن يعدوه عدوا لهم . . وكلما دعاهم إلى الحركة دعوه إلى السكون.

وكلما أخذ بهم إلى الفزع جذبوه إلى الركون، وهم أكثر منه عدداً، وأوفر عددا، فلا يمضى طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح، وينقطع نفسه من الدعوة إلى الإصلاح، وتضعف عزيمته، وتضمحل همته، فإذا جاء عدو . . وأحسوا بشدة الصدمة صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة، تتنفس الصعداء، وحسرة تصعد إلى السماء، مع القعود فى المساكن، والخلود إلى أخس المنازل، فينتهى بهم الأمر إلى الاضمحلال، وما بعد الاضمحلال إلا الزوال. . إن كان بالأمة ليس نوما، فيزول بالإيقاظ ، ولا غفلة، فتذهب بالتنبيه، وإنما هو خدر شلت به الأعصاب، وذيلت به العروق ، فماذا يكون فعل الرجل الكبير؟

يجهد عقله فى البحث عن الدواء، ويستعمل ما لديه من قوة فى معالجة الداء، وهيهات أن يشعر به المريض، بل هو تارة يضحك ضحكة المستهزئ، وأخرى يبكى

بكاء البائس، وتارة يضرب الطبيب بما حضر لديه، أو بيديه ورجليه حتى يقضى عليه.

وإذن فما الذى يصفه الرجل الكبير؟

يسعى ويجد ثم يموت محروماً من ثمرة عمله ، باكياً عن خيبة أمله.

ولكن هل كل ذلك يقضى على الرجل الكبير بأن يصغر؟

وهل يحكم على العظيم فى نفسه بأن يحقر؟

كلا . . فإنما هو يؤدى واجباً عليه، والله وراء ذلك والمرجع إليه.

رحم الله الإمام.

كان عظيماً رغم ما تحمله من محن السجن والنفى والبعد عن الوطن. . كما كان عظيماً أيضاً فى تشخيصه لأمراض المجتمع والطريق إلى أن يتعافى، ويصل إلى واقع أكثر أملاً وإشراقاً . . وإنتاجاً . . بالعلم . . والعمل . . والاجتهاد . . وفهم الدين فهماً واعياً مستنيراً . . وكون مدرسة من التلاميذ الذين نهضوا بهذا الوطن من أمثال سعد زغلول، ولطفى السيد، وقاسم أمين، وغيرهم

أهم المراجع

١ - الحسين أبو الشهداء - عباس العقاد.

٢ - عبقرية الإمام - عباس العقاد.

٣ - سيد الشهداء الإمام الحسين - موسى محمد على.

٤ - أئمة الفقه التسعة - عبدالرحمن الشرقاوى.

٥ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح - المستشار عبدالحليم الجندى.

٦ - الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول - المستشار عبدالحليم الجندى.

٧ - ضحى الإسلام - أحمد أمين.

٨ - المسند لابن حنبل - الشيخ محمد أبو زهرة.

٩ - ميراث الفقراء - فؤاد شاكر.

١٠ - الفلسفة العربية والطريق للمستقبل - د. عاطف العراقى.

١١ - العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر - د. عاطف العراقى.

١٢ - مدخل إلى التصوف الإسلامى - د. أبو الوفا التفتازانى.

١٣ - المحدثون فى مصر والأزهر - د. أحمد عمر هاشم.

١٤ - مرشد الزوار إلى قبور الأبرار - الإمام موفق الدين بن عثمان - حققه : محمد فتحى أبو بكر.

١٥ - مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - د. سعاد ماهر.

١٦ - الإسلام دين العلم والمدنية - الشيخ محمد عبده.

١٧- رواد الوعى الإنسانى - د. عثمان أمين.

١٨- أقلام ثائرة - حسن شيحه.

١٩- رجال حول الرسول - خالد محمد خالد.

٢٠- الإمام الحسين حياته واستشهاده - مأمون غريب.

كتب للمؤلف عن مركز الكتاب للنشر

١ - خلافة أبو بكر الصديق.

٢ - خلافة عمر بن الخطاب.

٣ - خلافة عثمان بن عفان.

٤ - خلافة على بن أبى طالب.

٥ - حجة الإسلام الإمام الغزالى.

٦ - العوالم الخفية والقرآن الكريم.

٧ - أبطال الجهاد فى الإسلام.

٨ - المهاجرون إلى الله.

٩ - أولو العزم من الرسل.

١٠ - الإمام الحسين حياته واستشهاده.

١١ - نساء فى حياة الأنبياء.

١٢ - إبحار فى ملكوت الله.

١٣ - عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين.

١٤ - بطلة كربلاء السيدة زينب رضى الله عنها.

١٥ - بلغة عصرية أجمل قصص ألف ليلة وليلة.